رحلات الدكتور دوليتل

تأليف
هيو لوفتينج

ترجمة
كوثر محمود محمد



رحلات الدكتور دوليتل

هيو لوفتينج

The Voyages of Doctor Dolittle

Hugh Lofting

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ١٩٧٥٧ / ٢٠١١
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

لوفتينج، هيو.
رحلات الدكتور دوليتل / تأليف هيو لوفتينج؛ ترجمة كوثر محمود محمد.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ١٧ ٧
١-القصص الإنجليزية
أ-محمد، كوثر محمود (مترجمة)
ب-العنوان
٨٢٣

رسم الغلاف: حنان الكرارجي، تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

المحتويات

الفصل الأول

بودلبي

قبل سنوات عديدة، عاش طبيب يدعى الدكتور دوليتل. كان هذا في زمن يسبق صبا أجدادك وجداتك بوقت طويل. اسم الطبيب الكامل هو د. جون دوليتل. وحرف الدال يدل على أنه طبيب مؤهل حاصل على شهادة في الطب. كان رجلًا شديد الذكاء ساعد الكثير من المرضى.

عاش الدكتور دوليتل في بلدة صغيرة تدعى بودلبي أون ذا مارش. جميع من بالبلدة عرفه، فقد كان تمييزه سهلًا؛ كان طويل القامة يرتدي على الدوام قبعة عالية — جعلته يبدو أطول قامة — ومعطفًا طويلًا أسود ذا جيوب عميقة احتفظ فيها بالكثير من الأشياء: منديل، ومذكرة، وتفاحة يدخرها فربما صادف حصانًا.

كان الناس يشيرون إليه كلما سار في شارع ماين ستريت ويقولون: «انظروا! ها هو الطبيب! كم هو بارع!» ويركض خلفه الأطفال، وهم يضحكون، ويسألونه الأسئلة، وكان يجيب عن أسئلتهم على الدوام ولم ير قط أن سؤالًا ما سخيف.

أما الكلاب فكانت تهز ذيولها وتتبعه في الشارع، وحتى الغربان التي تقطن برج الكنيسة كانت تطير فوقه وتنعب وتومئ له برأسها.

عاش الدكتور دوليتل في منزل صغير على أطراف البلدة، لكن حديقته كانت كبيرة، بها الكثير من الأعشاب والعديد من الأشجار، وطوق فناء المنزل حائط منخفض، وكانت به الكثير من الأماكن الظليلة للاسترخاء، وعاشت سارة أخت الطبيب معه، واعتنت بمنزله، فيما عني هو بالحديقة.

امتلك الدكتور دوليتل أيضًا الكثير من الحيوانات الأليفة؛ فقد كان مولعًا بالحيوانات. ففي البحيرة التي تقع في آخر حديقته كانت هناك أسماك ذهبية، وفي كوخ صغير مجاور

لمنزله أقامت الأرانب، وفي البيانو الذي امتلكه عاشت فئران بيضاء، وفي دولابه سنجاب، وفي قبوه قنفذ، بل كان يربي أيضًا بقرة بوصفها حيوانًا أليفًا.

تشاركت البقرة وصغيرها السكن في سقيفة أدوات المنزل مع حصان عجوز عاش مع الدكتور دوليتل لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، لذا فقد كانا صديقين مقربين. أيضًا عاش في الفناء نفسه بعض الدجاج، والحمام، وحملان، وعنز، والكثير من الحيوانات. الحيوانات المفضلة لدى الطبيب كانت البطة داب داب، والكلب جيب، والخنزير جاب جاب، والببغاء بولينيزيا، والبومة تو تو.

شكت شقيقته سارة كثيرًا من وجود هذه الحيوانات قائلة إن الحفاظ على المنزل مرتبًا صعب مع وجود كل هذه الحيوانات التي تركض في أرجائه على نحو يزعج المرضى عندما يأتون لموعدهم معه.

أتت عجوز يومًا ما لإجراء فحص طبي، وجلست على القنفذ الذي كان نائمًا نومًا عميقًا على الأريكة ولم يشعر بها وهي تدخل، ففزعت المرأة المسكينة بشدة حتى إنها صرخت وهرعت خارجة من الباب، وأقسمت ألا تزور الدكتور دوليتل ثانية، بل قادت سيارتها إلى بلدة تبعد عشرة أميال قاصدة طبيبًا آخر. وعندئذ قررت سارة دوليتل أن الوقت قد حان لتحدث أخيها بشأن حيواناته.

قالت سارة بحزم وهي تضع يدها على خصرها: «جون، كيف تتوقع أن يزورك مرضاك مع وجود كل هذه الحيوانات بالمنزل؟ هذا هو المريض الرابع الذي تصرفه الحيوانات. يقول السيد جينكينز إنه لن يأتي مجددًا، وحتى القس فاض به الكيل. لا يسعنا أن نخسر المزيد من الزبائن. إن أبقيت على هذا الوضع، فسنخسر أفضل زبائننا.» كانت سارة غاضبة حقًّا.

قال الطبيب: «لكنني أحب الحيوانات أكثر من أفضل زبائننا.»

فردت عليه سارة قائلة: «أنت سخيف.» ثم غادرت الغرفة.

ومع مضي الوقت، أتى الطبيب الطيب بالمزيد من الحيوانات، مما عنى أن مرضاه أخذ عددهم يتناقص، حتى لم يعد يأتيه إلا مريض واحد؛ هو الجزار.

لم يمانع الجزار من وجود كل تلك الحيوانات حوله، إلا أنه كان يمرض مرة واحدة في العام، وهذا لم يوفر للدكتور دوليتل وأخته ما يحتاجانه من المال لسداد كل فواتيرهما، علاوة على أنهما اضطرا إلى إطعام الكثير من الحيوانات.

كان الدكتور قد ادخر بعض المال الذي كان يمكن أن يكفيه سنوات، لكنه ظل يجلب المزيد من الحيوانات إلى المنزل، فنقل الفئران البيضاء إلى درج ثياب، وباع البيانو، ثم باع

حلته البنية، وعربة، وبعض الكتب، ومنضدة قديمة بالمطبخ. ومع ذلك، ظل المال شحيحًا والحيوانات كثيرة، واشتد فقر الدكتور دوليتل وأخته أكثر فأكثر.

فأصبح الكبار يشيرون إليه عندما يسير في الشارع مرتديًا قبعته العالية قائلين: «ها هو الدكتور دوليتل! كان الطبيب الأفضل في البلدة، لكنه الآن فقير إلى حد أنه لا يستطيع اقتناء حلة جيدة، وليس لديه أي نقود، وجواربه تملؤها الثقوب.»

إلا أن الدكتور دوليتل لم يكترث لذلك، فقد ظل رجلًا سعيدًا.

ظلت تركض في إثره الكلاب والقطط والأطفال. وظلت الكلاب تهز ذيولها سعادة برؤيته، والأطفال يسألونه الأسئلة، ومنحهم الطبيب الطيب جميعًا الوقت للحديث معه كعهده دائمًا.

الفصل الثاني

لغة الحيوانات

عرج الجزار ذات يوم على الدكتور دوليتل لزيارته، فلاحظ أن معطفه به الكثير من الرقع. كان الجزار يدرك أنه زبون الدكتور الوحيد، ويدرك أن الطبيب وأخته حتمًا يعانيان فقرًا شديدًا ولا يتحصلان إلا على دخل ضئيل للغاية. ولما تأمل المطبخ ولاحظ كل هذه الحيوانات التي بدت عليها السعادة والصحة الجيدة، واتته فكرة!

صاح: «لدي فكرة! لِم لا تتوقف عن علاج الناس وتصبح طبيبًا بيطريًّا؟»

كانت بولينيزيا الببغاء تجلس على عتبة النافذة وهي ما تزال تنشد أغنية لنفسها، فلما سمعت الجزار يقول هذا توقفت عن غنائها لتصغي إليه.

تابع الجزار كلامه قائلًا: «هذا منطقي تمامًا. أنت تعرف كل شيء عن الحيوانات، وأنا موقن من أن ما تعلمه عنها يفوق بكثير ما يعلمه أغلب الأطباء البيطريين. لقد لاحظت أنك تنسجم معها أكثر مما تنسجم مع البشر. لا أقصد بالطبع أنك لا تنسجم مع البشر؛ كل ما أعنيه هو أنك تبدو أكثر ارتياحًا مع الحيوانات، والحيوانات تبدو أكثر ارتياحًا معك. انظر إلى مطبخك! الحيوانات السعيدة تملؤه!»

كان هذا صحيحًا؛ فالكلب جيب، والخنزير جاب جاب طويا جسديهما وهما يجلسان معًا في ركن، وجلست داب داب البطة على المنضدة تنظف ريشها، أما القنفذ فكان يغفو تحت المنضدة، فيما تلعب الفئران في صندوق بجانب الباب، أما الببغاء بولينيزيا فكما تعرفون جلست على عتبة النافذة تنصت لكل كلمة.

قال الدكتور دوليتل: «لا أدري، لم أفكر في هذا من قبل. تبدو هذه الفكرة شديدة الغرابة.»

فصاح الجزار: «غريبة؟ لكنها منطقية تمامًا. ثمة الكثير من المزارعين المجاورين يملكون أبقارًا وأغنامًا قد تنتفع من مساعدتك، علاوة على كل قطط وكلاب البلدة. والحيوانات تمرض كثيرًا شأنها شأن البشر. ثق بكلامي. عليك أن تصبح طبيبًا بيطريًّا!»

بعد أن غادر الجزار طارت بولينيزيا من النقطة التي جلست عندها وجلست إلى جانب الدكتور دوليتل وقالت: «كلام هذا الرجل منطقي إلى حد بعيد. عليك أن تصبح طبيبًا بيطريًّا. هؤلاء القوم كانوا حمقى لأنهم كفوا عن القدوم إلى هنا. أنت أفضل طبيب بالعالم، والحيوانات بحاجة إليك.»

قال الدكتور دوليتل: «ثمة الكثير من الأطباء البيطريين في الجوار.» ثم هز رأسه نفيًا، وضحك ضحكة خافتة قصيرة ثم نهض من على المائدة وأخذ يزيل أطباق الطعام من عليها.

قالت بولينيزيا: «نعم، ثمة الكثير من الأطباء البيطريين في الجوار، لكنك ستكون الأفضل. أنا واثقة من هذا. لن يستطيع أي طبيب بيطري آخر أن يباريك.»

ثم طارت إلى عتبة النافذة حيث أخذ الدكتور دوليتل يصلح بعض آنية الزهور، وقالت له: «سأخبرك بأمر شديد الأهمية، لذا أود أن تصغي إلي بعناية.»

ترك الدكتور دوليتل أصيص الزهر والتفت ينظر إلى بولينيزيا.

فسألته: «هل تعلم أن الحيوانات تستطيع أن تتكلم؟»

فأجاب مبتسمًا: «أعلم أن الببغاوات تتكلم بالطبع.»

فقالت بولينيزيا في زهو: «أجل، نحن الببغاوات نتحدث لغتين؛ لغة البشر ولغة الطيور. على سبيل المثال، إن قلت: «بولي تريد رقاقة بسكويت»، فستفهمني. الآن أصغ إلى هذا: كا-كا أو-إي إي في-في.»

فصاح الطبيب: «عجبًا! ما الذي يعنيه هذا بحق السماء؟»

فقالت بولينيزيا: «يعني هذا في لغة الطيور: هل الشاي جاهز؟» وأومأت برأسها عدة مرات وقفزت على عتبة النافذة. كان إطلاع الدكتور دوليتل على هذه المعلومة شيقًا، حتى إنها تساءلت لِم لَم تفكر في هذا من قبل.

فقال الطبيب متعجبًا: «حقًّا؟! هذا شيق! لم أسمعك من قبل تتحدثين بهذه اللغة.»

فسألته: «ولِم أتحدث هكذا؟ لم تكن لتفهمني. حقيقة ليس هناك جدوى من الحديث هكذا أمام البشر، لهذا لا نفصح عادة عن ذلك.»

فقال الطبيب وقد تحمس للأمر: «حدثيني أكثر عن هذا. لا، مهلًا!» وأخرج مفكرته وقلمه الرصاص من جيبه وقال: «لا تسرعي الآن. سأكتب كل شيء.»

وجلس على المنضدة، وقال: «لنبدأ من البداية. أطلعيني على أبجدية الطيور.» ومن هنا بدأ الدرس.

من هنا تعلم الدكتور دوليتل أن للحيوانات لغتها الخاصة وأنها تستطيع أن تتحدث فيما بينها، فجلس طوال عصر هذا اليوم في المطبخ مع بولينيزيا يتعلم كلمات لغة الطير، وكتب كل كلمة بعناية في مفكرته وتهجاها كما بدت له ليتذكرها فيما بعد.

وبعد بضع ساعات استيقظ الكلب جيب، وسار إلى بولينيزيا والطبيب، فقالت بولينيزيا: «أرأيت؟ إنه يحدثك.»

فقال الدكتور دوليتل: «لم أسمع شيئًا. لاحظت فقط أنه يحك أذنه.»

فقالت بولينيزيا: «الحيوانات لا تتحدث على الدوام بالأصوات. نحن نتحدث بآذاننا، وأقدامنا، وذيولنا، ونستخدم كل جزء من أجسامنا للتحدث؛ إذ لا نحب أحيانًا أن نحدث ضجيجًا. أترى كيف يجعل أحد جانبي منخاره يرتجف؟»

فقال الدكتور دوليتل: «أجل، أجل. أرى هذا. ما الذي يعنيه ذلك؟»

فأجابت بولينيزيا: «إنه يسألك إن كنت قد لاحظت أن المطر توقف، فالكلاب تستخدم أنفها على الدوام تقريبًا في سؤال الأسئلة.» فدون الدكتور دوليتل بسرعة هذه المعلومة أيضًا في مفكرته.

لم يمض وقت طويل إلا واستطاع الدكتور دوليتل فهم لغة الحيوانات ومخاطبتها بنفسه، لكنه ظل أحيانًا بحاجة إلى مساعدة بولينيزيا، لكن مع ثقته من أنه سيصبح عما قريب قادرًا على مخاطبتها بنفسه. ومن هنا قرر آخر الأمر أن يعمل بنصيحة الجزار، وتوقف عن العمل طبيبًا بشريًّا وبدأ في معالجة الحيوانات بدلًا.

الفصل الثالث

النجاح أخيرًا!

ساعد الجزار في نشر الخبر، ولم يمض وقت طويل إلا وعلم الجميع أن الدكتور دوليتل أصبح الآن يعالج الحيوانات، فجلبت السيدات المسنات كلاب البودل الخاصة بها التي أكلت الكثير من الكعك، وسافر المزارعون أميالًا عديدة ليجلبوا له أبقارهم وأغنامهم المريضة، وجلب الأطفال قططهم التي تعاني من الزكام. وصار لدى الدكتور دوليتل الكثير من الزبائن وأصبح شديد السعادة.

ذات يوم أُتي بحصان حرث إلى الطبيب. كان الحصان المسكين سعيدًا بالعثور على رجل يستطيع الحديث إليه، فقد عانى عناء شديدًا لأنه لا يُفهم.

قال الحصان: «أتعلم أيها الطبيب، الطبيب البيطري الذي أُخذت إليه أولًا كان جاهلًا إلى أقصى حد. ظل طوال الأسابيع الستة الماضية يعطيني دواءً للصداع، لكن ما أحتاج إليه حقيقة هو نظارة! فإحدى عيني تفقد البصر.»

نظر الطبيب بإمعان في عين الحصان اليسرى، فوجدها غائمة بالفعل، فقال للحصان: «أستطيع أن أصنع لك نظارة في الحال.»

فقال الحصان: «أريد نظارة كنظارتك، إلا أنني أريد أن يكون زجاج نظارتي أخضر اللون، فهذا سيساعد على حجب ضوء الشمس عني وأنا أعمل في الحقل.»

فرد عليه الدكتور دوليتل قائلًا: «بالطبع! سيكون لك هذا!»

وقاد حصان الحرث إلى باب مكتبه، وقال: «سأكون قد فرغت من تجهيزها لك الأسبوع القادم.»

فقال الحصان وهو يسير خارجًا من باب مكتب الطبيب: «مشكلة أغلب الأطباء البيطريين هي أنهم يحسبون أن كل ما يفعلونه صائب لأن الحيوانات لا تشكو.»

ثم تابع كلامه قائلًا: «أنا بصورة عامة مخلوق هادئ جدًّا، وأتحلى بالصبر مع البشر عادة. كل ما في الأمر هو أنني أعاني عناءً شديدًا عندما لا يكترثون بي إلى حد واضح. أخشى أنني في بعض الأحيان أفقد السيطرة على أعصابي.»

فقال له الطبيب الطيب دوليتل: «علينا جميعًا أن نحاول التحلي بالصبر، وعليك أن تحاول أن تتذكر أن أغلب البشر لا يقصدون أذى.»

بعدئذ ربت على ظهر الحصان، وتركه يمضي إلى حال سبيله. ولما عاد الحصان بعد أسبوع أعطاه الطبيب نظارة خضراء كبيرة.

وكما هو متوقع، دهش الناس من رؤية حصان يرتدي نظارة؛ فكانوا يتوقفون ويحدقون به كلما عمل بالحقل، إلا أنهم لم يندهشوا عندما علموا أن النظارة أتت من الدكتور دوليتل، فقد صاروا يتوقعون منه أمورًا من هذا القبيل. ولم يمض وقت طويل قبل أن يصبح ارتداء الأحصنة للنظارات مشهدًا معتادًا، بعدئذ ظهرت كلاب تضع جبائر للعظام، وقطة تسير متكئة على عكاز، وبقرة ترتدي دعامة عنق، وماعز ترتدي عدسة واحدة.

شعرت كل هذه الحيوانات بالرضا الشديد عن عمل الدكتور دوليتل حتى إنها حدثت عنه حيوانات أخرى، وسرى حديثها عنه من بلدة إلى أخرى، وتحمست الحيوانات في كل مكان لوجود طبيب بيطري يستطيع أن يفهم لغتها؛ يصغي إليها ويساعدها في أي مشكلة تواجهها.

سمعت الحيوانات البرية أيضًا عن الدكتور دوليتل، فأتى الكثير منها من الغابات لرؤيته؛ احتشدت في فناء منزله الغرار والخفافيش والسناجب والذئاب والبوم والثعالب، وفي نهاية الأمر أصبح عدد الحيوانات كبيرًا جدًّا حتى إن الدكتور دوليتل اضطر إلى تنظيم صفوفها.

صنع لافتات ليعلقها على أبواب منزله مخصصة لأنواع الحيوانات المختلفة، فكتب على لافتة الباب الأمامي: «الجياد»، وعلى لافتة الباب الجانبي: «الأبقار»، وعلى لافتة باب المطبخ: «الأغنام»، وحتى الفئران كان لها مدخل صغير خاص بها بجانب قبو المنزل، مما سهل الأمور على الطبيب. حينها سنح له فحص الحيوانات وهي تصطف بصبر عند الباب المخصص لها.

سارت حياة الدكتور دوليتل على هذا المنوال عدة سنوات؛ أتت الحيوانات من المناطق المجاورة من على بعد أميال إلى بلدة بودلبي أون ذا مارش للقائه، وبذا أصبح شهيرًا بين حيوانات العالم أجمع، وعاش سعيدًا، وأحب حياته كثيرًا.

جلست بولينيزيا يومًا كعادتها على عتبة النافذة، تتطلع إلى الخارج، وفجأة أخذت تضحك.

فسأل الدكتور دوليتل الذي كان يقرأ جريدة الصباح وأدهشه ضحكها: «ما المضحك إلى هذا الحد؟»

فأجابته: «خطر لي توًّا أن البشر مضحكون جدًّا؛ إنهم يمضون وقتًا طويلًا للغاية مع الحيوانات، لكن كل ما تعلموه هو أن هز الكلب لذيله يعني أنه سعيد.»

فسألها الطبيب: «وهذا أضحكك؟»

فأجابته: «أعتقد أنه من المضحك أنك أول من حاول فهمنا. أخيرًا بعد كل هذه السنوات حاول أحد الأشخاص فهمنا.» وهزت رأسها ضاحكة.

فقال الدكتور دوليتل: «حسنًا. أظن أن هذا غريب.»

استطردت بولينيزيا قائلة: «جمعتني فيما مضى معرفة ببغاء من نوع مكاو يمكنها أن تقول «صباح الخير» بسبع لغات بشرية مختلفة. علمها أستاذ مسن هذا، لكن صديقتي شعرت بالإحباط، فقد أخبرتني أن الأستاذ المسن لم يستطع تحدث اللغة اليونانية جيدًا، وقد أرادت أن تصوب له أخطاءه لكنها خشيت أن يعد هذا تصرفًا فجًّا.»

ثم بدا على بولينيزيا فجأة الجدية، والتفتت إلى الدكتور دوليتل وقالت: «ثمة الكثير من الأشياء التي لا يستطيع البشر القيام بها؛ فهم لا يستطيعون الطيران أو البقاء تحت الماء وقتًا طويلًا، أو الركض بسرعة عربة أو قطار، لكنهم مع ذلك لا يزالون يحسبون أنهم أفضل من كل ما حولهم. لماذا؟»

فقال الطبيب بحزن: «آسف. لا أعرف الجواب لهذا. لقد تساءلت كثيرًا عن هذا الأمر نفسه.»

الفصل الرابع

المزيد من المشكلات المالية

لم تقتصر الفرحة بعمل الدكتور دوليتل الجديد عليه وعلى الحيوانات؛ فقد سعدت سارة أيضًا به، إذ أتاها هي والدكتور دوليتل دخلًا أخيرًا، حتى إنها اشترت فستانًا جديدًا لارتدائه يوم الأحد، لكن الحيوانات ظلت تزعجها، فقد كان من المستحيل الإبقاء على المنزل نظيفًا.

بعض الحيوانات المريضة كان المرض قد اشتد عليها حتى إنها اضطرت إلى المكوث في المنزل أسبوعًا؛ كانت تجلس على الكراسي الموجودة بالمرج أو تسترخي في الحديقة، وأحيانًا عندما تشعر بأنها صارت أفضل حالًا، ترفض المغادرة؛ إذ أحبت المكوث لدى الدكتور دوليتل كثيرًا. ولم يسع الطبيب قط أن يرفض بقاءها، من ثم تزايد عدد الحيوانات الأليفة في منزله أكثر فأكثر.

رأى الطبيب يومًا أثناء سيره في البلدة عازفًا متجولًا لأرغن صغير يصطحب قردًا مقيدًا بحبل، فلاحظ على الفور أن الطوق الذي يقيد القرد شديد الإحكام، وانتبه إلى أن القرد الصغير كان تعيسًا، فأعطى العازف دولارًا وأخذ منه القرد. غضب العازف في البداية، إذ لم يرد أن يتخلى عن القرد، لكن عندما قال الدكتور دوليتل إنه سيتصل بالشرطة ويبلغها بقسوته، أدرك الرجل أنه خسر النقاش وأخذ الدولار ورحل.

انتقل القرد للعيش مع الدكتور دوليتل وجميع حيواناته الأليفة، وأسمته الحيوانات الأخرى «تشي تشي» وهو اسم يعني في لغة القرود «زنجبيل».

وفي يوم آخر زار طاقم سيرك البلدة. عانى تمساح يسافر مع الطاقم من ألم في أسنانه، ففر في منتصف الليل وأتى الدكتور دوليتل. استطاع الطبيب بالطبع أن يحدثه بلغة التماسيح، وصحبه إلى بيته، وعالج السن التي تؤلمه، وكما هو متوقع، لم يرد التمساح أن يغادر، وطلب من الطبيب أن يسمح له بالعيش في البحيرة الصغيرة التي

تقع في آخر حديقته، ووعد بألا يلتهم الأسماك التي تعيش فيها. وبالطبع لم يستطع الطبيب الرفض. وأوفى التمساح بعهده ولزم الهدوء دائمًا وعامل كل من بالمنزل بلطف. ولما أتى رجال طاقم السيرك لاستعادته، وجدوه سعيدًا وهادئًا حتى إنهم اتفقوا في الرأي مع الدكتور دوليتل أنه سيكون أكثر سعادة بكثير إن أقام هناك، فتركوه معه.

لكن سارة أخت الطبيب لم تسعد بهذا. أخافها التمساح خوفًا شديدًا، وخشيت أن يبث الخوف في نفوس الآخرين أيضًا. وقد كانت مع الأسف محقة؛ إذ توقفت السيدات المسنات عن جلب كلاب البودل اللائي يعشقنها خشية أن يلتهمها التمساح، وتوقف المزارعون عن جلب أغنامهم للسبب نفسه.

حاول الدكتور دوليتل أن يحدث التمساح عن الأمر، وأوضح له أنه يخسر زبائنه لخوفهم منه، ثم أضاف إنه سيضطر إلى العودة إلى السيرك، فبكى التمساح بشدة وتوسل إلى الطبيب أن يسمح له بالبقاء معه، ووافق الطبيب بالطبع، إذ لم يحتمل رؤية حيوان يشعر بالتعاسة.

هنا قالت أخته سارة: «فاض بي الكيل. كادت أحوالنا تتحسن من جديد! لن يمضي وقت طويل قبل أن نعود إلى حياة الضنك من جديد. يجب أن يرحل هذا القاطور.»

فرد عليها الدكتور دوليتل بهدوء قائلًا: «إنه ليس قاطورًا، بل تمساح.»

– «لا آبه ما هو. العثور على شيء كهذا تحت الفراش مريع.»

– «لقد وعد بألا يؤذي أي حيوان، وأنا أثق به تمامًا.»

صاحت سارة قائلة: «تثق به؟! هل جننت؟ لقد توقف الزبائن عن المجيء بسبب هذا المخلوق. لقد نلت كفايتي. إما أن يرحل أو أنا أرحل.»

وكان ما كان؛ حزمت سارة أخت الدكتور دوليتل متاعها ورحلت عن المنزل وانتقلت إلى الشارع المجاور حيث عملت مدبرة منزل، وفي نهاية الأمر تزوجت من رجل جم اللطف وعاشا معًا حياة سعيدة هادئة. وكما لك أن تتوقع، كان منزلها على الدوام نظيفًا ومرتبًا.

كان الدكتور دوليتل يشعر بسعادة بالغة مع حيواناته، لكنه مع ذلك واجه وقتًا عصيبًا؛ فأخته كانت محقة؛ تخوف الناس من التمساح، ومن هنا خسر هو أكثر زبائنه، ومن جديد، لم يعد معه إلا القليل من المال، ولما لم تعد أخته معه، لم يجد شخصًا آخر يساعده في شئون المنزل. ولم يكن قادرًا على توظيف من يساعده، لذا بذلت الحيوانات كل ما بوسعها لمساعدته.

تولى القرد تشي تشي كل أمور الطهي والحياكة، وساعدت البومة تو تو في تولي شئون المنزل المالية؛ إذ أجادت الحساب، أما البطة داب داب فأزالت الغبار عن الأسِرة ورتبتها، فيما ساعد الخنزير جاب جاب في البستنة، أما بولينيزيا فكانت مدبرة المنزل، مما عنى أنها كانت المسئولة عن كل شيء، وقد حرصت على أداء كل المهام المنزلية على الوجه الصحيح.

احتاجت الحيوانات إلى بعض الوقت لتتعلم تأدية مهامها. على سبيل المثال: كانت مشاهدة جيب الكلب وهو يكنس الأرض بذيله ممتعة جدًّا! إلا أن الحيوانات كافة كانت عازمة على العمل، فحاولت وحاولت إلى أن استطاعت إتقان مهامها. كان هذا أقل ما يمكن القيام به من أجل الطبيب الذي منحها الكثير.

غير أن المشاكل المالية ظلت قائمة. احتاج الطبيب إلى إطعام الكثير من الحيوانات، ولم يرد إليه المال إلا من القليل من الزبائن، لذا أنشأت الحيوانات كشكًا صغيرًا على جانب الطريق وباعت خضروات الحديقة. كان الدكتور دوليتل يهز كتفيه بلا مبالاة عندما تتخوف بولينيزيا من عدم كفاية المال لشراء الأسماك للعشاء.

كان يقول لها: «لا تقلقي كل هذا القلق. إنك تبدين كأختي. ما دام الدجاج يضع البيض، والأبقار تدر اللبن فسنكون على ما يرام. بإمكاننا دومًا أن نطهو بيض الدجاج على العشاء، كما أن الشتاء لا يزال بعيدًا. سيتاح لنا وقت لجني المزيد من المال.»

لكن الشتاء جاء قبل أوانه بكثير هذا العام، ولم تعد هناك خضروات بالحديقة. كانت لديهم مدفأة كبيرة لطيفة يجلسون حولها، لكن الحيوانات كانت جائعة، وتخوفت من أن يكون الشتاء طويلًا وباردًا.